كنت على وشك أن أتزوج

للأستاذ توفيق الحكيم

[فى هذا الأسبوع أخرج صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم كتابه (حمار الحكيم) . وهو كتاب قصصى طريف ، أخذ اسمه من جحش رضيع اشتراه وأنزله معه فندق (. . . .) ، ثم أدار فيه الحديث على اتفاقه مع شركة شربانتيه السينمائية على أن يضع لها حوار قصة مصرية . ثم شقق الحديث وشعبه فتناول الأدب والفن والمرأة والزواج بأسلوبه الفكه الطلى . وفيما يلى فصل قيم من هذا الكتاب يصور قطعة جيلة من حياة الكاتب]

رفع صاحبي رأسه والتفت إلىّ فجأة قائلاً :

— ألم يخطر ببالك أن تتزوج ؟

فقلت وأنا أحاول التذكر :

— نعم ، كنت موشكاً على الزواج منذ عشر سنوات ... لكن ...

ثم كررت بفكرى راجعاً إلى ذلك العهد وابتسمت ، فقد مرت برأسى صورة ما حدث وما ثنى عزمى عن المضى فى ذلك الأمر

كنت ذات عصر راكباً عربة يجرها حصانان ، وإلى جانبى أحد المهتمين بشئونى ، فرأينا السائق يهوى بسوطه على أحد الجوادين ، فمال من الألم على شريكه كأنه يشكو إليه ، والتقى رأسا الجوادين كأنهما يتساران . فجعلنا نتحدث فى ذلك ونقول : إن مركبة الحياة كذلك لا يهوّن من أوجاعها غير أن يربط إليها شريكان يشدان عجلاتها ويشجع أحدهما الآخر كلما سلط عليه القدر سوطاً من سياطه . ثم قلنا : من يدرى ؟ لعل هذا سر ذلك الحظر الذى نراه فى بعض المدن على من يستعمل مركبة ذات جواد واحد . ثم مضينا فى الاستطراد حتى قلنا : ولماذا لا يسرى الحظر على مركبة الحياة ؟ وعند ذاك اتجه الكلام إلى ، وصارحنى من معى بأن مركبة حياتى لا ينبغى بعد اليوم أن أجرها بمفردى . فإنها قد تحمل فوق ما أطيق ، وأنا رجل غريب الأطوار قد أسير بها سيراً غير مألوف فأتخبط بها فى طرقات غير ممهدة لا أحفل بسوط سائق . بل من يدرى لعلى جمحت مرة فأسقطت سائقى فى الأوحال ، وجعلت أنطلق منفرداً بمركبة بلا نور ، أركض بها على غير هدى حتى أرتطم فى جدار ... وانتهى الأمر بصياح ذلك المهتم بشأنى :

— لا بد من زواجك

فقلت له :

— فى الحالة الحاضرة ... وقتى ضيق ...

فقاطعنى صائحاً :

— اترك لى المسألة ...

ولم يمض شهر حتى وجدت ذلك الشخص الكريم قد خلا بى ووضع فى يدى صورة فتوغرافية لفتاة طريفة وقال لى :

— تعجبك ؟

فتأملت الصورة ملياً ثم قلت :

— من أى وجه ؟

فصاح بى :

— اعمل معروف لا داعى للفلسفة . إن كان شكلها مناسب !

— مناسب ...

— انتهينا ...

ثم مد يده إلىّ وقال :

— وصورتك بسرعة . آخر صورة لك

— الصورة الوحيدة الموجودة عندى هى صورة جواز السفر

— ما تنفعش ؟ قم بنا نعمل لك صورة « جواز » فقط ؟

وسحبنى من يدى ، وذهب بى إلى محل « مصور فتوغرافى » معروف . فوضعنى ذلك المصور أمام لوحة من قماش تمثل ستارة سوداء ، وأراد أن ينزع من يدى العصا ، ليضع هذه اليد فوق « درابزين » مزيف قد أتى به ، فأبيت ذلك عليه ، فرد على عصاى ، ونظر من حولى إلى وقفتى ، فلم ترقه ، فصاح فى المصور :

— هو واقف على إيه ؟

فقال المصور :

— على سلم

فصاح به :

— وإيه مناسبة السلم والدرابزين ! اجعل وقفته فى جنينة

مطبعة التوكل — ٢١٠٠ صفحة ١٥٠ مليم

وحط الورد حواليه ، وارفع الستارة المحزقة من جنبه وانصب بدلها خيلة ياسمين أو تكميبة عنب ! بالاختصار مناظر مفرحة ...

ثم مال على المصور ، فأسر فى أذنه كلاماً

فتهلل وجه المصور وقال :

— فهمت الطلب

ثم أسرع فأحضر ستائر حمراء ومناظر خضراء وأصص أزهار ورياحين وهو يقول :

— إن شاء الله أطلعه يحاكى البدر فى سماه !

فأردت أن أظهر عجبى لهذه المعجزة إذا صحت ، فأسكتنى وأوقفنى بين المناظر الرائعة والخضرة الزاهرة ... ودخل هو فى شىء يشبه « البطانية » السوداء يغطى جهاز تصويره ، ولبث فيه لحظة ثم خرج بصيح :

— واحد ... إثنين ... ثلاثة ... مبروك !

فتركت موقفى وأقبلت على المصور أوصيه :

— الصورة تكون طبيعية . إياك تعمل « رتوش » !

فما شعرت إلا والقولى شأنى قد انتزعنى انتزاعاً من بين يديه ودفعنى بعيداً ، وأقبل على المصور يقول له :

— إياك أن تسمع كلامه !

ثم التفت إلىّ قائلاً :

— حد فى الدنيا يقول للمصورانى ما يعملش « رتوش » ؟ خصوصاً لحضرتك !

فقلت :

— على كل حال لا بد من كونى أطلع على « البروفة » قبل كل شىء

فقال المصور : إن تجارب الصورة يمكن الاطلاع عليها فى صباح اليوم التالى . فغادرناه على أن نعود إليه فى الغد . ومضى النهار ، وجاء الغد ، فانسللت بمفردى إلى حانوت المصور أطلع خفية على تجارب الصورة . فعرضها علىّ ، فتأملت وجهى فيها ، فلاحظت أن شاربىّ غير متساويين فى الطول ، وأن شارباً أقصر من شارب ، فتباحثنا فى علاج ذلك ، وقلت له : إن « الرتوش » الوحيدة التى آذن بها هى أن يعدل ريشته إلى الشارب القصير فيطيله حتى يساوى أخاه . وانصرفت وانتصف النهار ، وقابلت بعد ذلك المهتم بشأنى ، فقصصت عليه ما حدث من أمر الشارب ، فما راعنى إلا قوله إنه مر هو الآخر بحانوت المصور عقب انصرافى ، فلما علم بمسألة الشوارب ، أمر المصور أن يزيلها كلها وكفى الله المؤمنين القتال . فما إن سمعت منه ذلك حتى صحت فى وجهه :

— يزيلها كلها !

— إيه المانع ؟

أنا بشوارب تعملونى من غير شوارب ! هذا العمل اسمه تزوير

— يعنى لا سمح الله قدنا زورنا فى كمبيالة !

— هو التزوير لا بد أن يكون فى كمبيالات

كان غرض حضرتك أن أهل العروسة يقولوا مقدمين لنا عريس « بشنب ودقن » !

— نقوم نلجأ للغش !

— وأنت فاهم أن صورة العروسة خالية من الغش ؟

— شىء عجيب !

— مؤكد شىء مفهوم مقدماً . وفى المستقبل يتضح لك أن ما عملناه أقل مما عملوه بمراحل ، اطمئن !

فقلت من فورى :

— الحمد لله اطمأنيت . إذا كان مجرد « الشكل » وضمناه على هذا الأساس ، يبقى « الموضوع » ...

فقاطعنى :

— لا ... « الموضوع » مضمون أربعة وعشرين قيراط . ثروتها معروفة وتحرياتنا صحيحة ، وأنت حالتك المالية واضحة ...

— دا كل قصدكم من « الموضوع » ؟

— طبعاً . فيه شىء غيره ؟

فلم أطق صبراً ، فقمت دون أن أجشم نفسى مشقة الجواب وذهبت ، وقد ذهبت عنى فكرة الزواج إلى اليوم . ولم يعد شبحها يظهر إلا مقترناً بذكرى هذا الحوار بنصه وألفاظه كما سمعتها ، فكانت ذكراه تقصينى من فورى عن المضى فى التفكير . فهذه الشركة النبيلة بين روحين تعاهدا على السير جنباً إلى جنب فى طريق الحياة الشاقة الطويلة ، ما زالت تقام فى أغلب الأحيان على هذا النحو المخجل ، وإذا صلحت هذه الطريقة لكثير من الناس فهل تصلح لشخص مثلى قد تتأثر حياته الفكرية وإنتاجه الذهنى

إلى حد كبير بشخصية الشريك . لذلك آثرت السلامة وأحجمت عن المغامرة ، خشية الوقوع فى غلطة تفسد على الحياة كلها

ورجعت إلى وحدتى ... تلك الوحدة الباردة التى تحيط بى من كل جانب فما أنا فى الحقيقة دائماً سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد ، وضعت داخله يد المصادفة إناء يغلى ويتصاعد منه بخار ، هو تلك الأفكار التى تخرج من نافذتى إلى حيث تصل أحياناً إلى جوع الناس . فإذا دخلت امرأة هذا الكوخ فمن يضمن لى ما سوف تلقيه فى هذا الإناء وما يتصاعد من جوفه بعد ذلك ! ...

ا أنفقت حياتى متنقلاً ، تائهاً ليس لى مكان معروف ولا عنوان دائم . فما تركت فندقاً لم أنزله ، ولا نزلاً لم أهبطه . حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال واستنكفت أن أعيش هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائرة . . . فأردت أن أجرب الحياة المستقرة فى مسكن ثابت اخترته فى بقعة جميلة من بقاع القاهرة ... يشرف على النيل ، وترى من نوافذه الفلفلة والأهرام وعنيت بأثاثه ، وأعددت فيه مكتباً أنيقاً وخزائن للكتب ، واقتنيت سيارة ، وألفت بمفردى وحولى خادم وطاه وسائق ...

فماذا حدث ؟ لم أتحمل الحياة فيه عاماً . فقد كاد الخدم الثلاثة يذهبون البقية الباقية من عقلى ، فالخادم النوبى جعل يكسر «اسطوانات» الثمينة؛ وتحريت أمره فعلمت أنه يتربص بى حتى أخرج فى الصباح ، فيدير « الجراموفون » ويضع ما يقع فى يده من أعمال «بيتهوفن» و «موزار»، ولا يحلو له تنظيف «الباركيه» وطلاؤه إلا على هذه الأنغام

أما الطاهى فقد كان يبدى الابتكار فى ألوانه أول الأمر ، ثم قصر وتراخى حتى صار الطعام ضرباً من (الروتين) لا طعم له . فكنت أحياناً أترك المنزل بما أعد لى فيه وأذهب إلى مطاعم المدينة. ولقد كان الخدم دائماً طعام غير طعامى ، هو فى أكثر الأحيان ألذ وأمتع . ولطالما أمرت الطاهى أن يحضر لى مما فى قدورهم هم ويحمل كل هذه الألوان التى نسقها تنسيقاً ظاهراً دون أن يضع فيها روحه وقلبه ...

وليس هذا كل شىء . فقد علمت أن الطاهى يعد على حسابى قدراً كبيراً من الطعام يقدمه بالأجر إلى بوابى الجيران ؛ وأن الخادم يدعو جميع زملائه النوبيين كل عصر عقب انصرافى إلى تناول الشاى

ولم يدهشنى ذلك فإن نفقاتى بمفردى كانت دون أن أدرى نفقات أسرة مكونة من عشرة أعضاء، وما انتهى إلى ذلك إلا ضيف عابر . على أن كل هذا لم يغضبنى كثيراً . إنما الذى أثارنى حقاً هو مسمار صغير وجدته يوماً فى لون من ألوان الطعام ؛ كدت أزدرده ... هنالك لم أطق صبراً . وعلمت أن الخدم بلا رقابة هم خطر من الأخطار العامة ... وما ملكت نفسى عن الصياح فيهم يوماً (والله لأتزوج لكم وأمرى إلى الله)

أما السائق فلا يريد أن يصغى إلى رجائى كلما طلبت إليه ألا يسرع . فأنا أبغض السرعة. إنها تمنعنى من التفكير، ولطالما أكدت له أنى لست متعجلاً شيئاً . ولا شىء فى الوجود يستعجلنى، فأنا عدو الزمن والوقت ، ولم أهمل ساعة قط ، فالوقت عندى ليس من ذهب بل من تراب كأجسامنا ... ولكنه ينطلق بى رغم ذلك ، كأنما يريد أن يطرحنى فى أسرع وقت ، ليخلص منى وينصرف إلى شأنه . فكنت أتركه أحياناً يقف منتظراً فى جانب الطريق وأسير مفكراً حراً حيث أشاء . ثم أدرك أخيراً أنى لا أحب السهر وأنى شديد الكسل وأنى أكتفى بعبارة أقولها له كل عصر : « اطلع جهة فيها هواء نقى » « فين ؟ » (أى جهة تختارها) ، فيمضى بى حيث يريد هو دون أن أعترض ويقف بى أحياناً حيث يشاء ويقدر أن المناظر جميلة والهواء منعش فلا أتكلم ، فإن فكرى منصرف دائماً عنه ، مادام لا يسرع بى ولا يقول لى : « تفضل » . إلى أن يرى أن الأوان قد آن للتحرك فيقودنى إلى حيث أتناول الشاى أو العشاء فى الأماكن المعتادة . فإذا أمرته أن يذهب بى إلى السينما ... فقد عرف ألا يسألنى أيها . بل يمضى بى طائفاً على جميع الدور ، فيقف أمام كل باب من أبوابها لحظة ، فإذا نزلت فقد انتهت مهمته . وإذا لم أنزل فإنه يتحرك إلى غيرها ... وإذا مر بجميعها فلم أغادر السيارة فإنه يعود بى من تلقاء نفسه إلى المنزل ويقول لى : « تفضل » . فأنزل فى صمت ، وقد شعر بقدر هذه السلطة الواسعة فى يده فاستغلها آخر الأمر استغلال الطغاة لحرية الشعب . فكان

إذا أراد أن يفرغ من عمله مبكراً أو يخلص إلى شأن من شؤونه طاف بتلك الأماكن طوافاً سريعاً لا يكفى لإيقاظى من تأملاتى أو إخراجى من ترددى ، ثم ردنى إلى منزلى ، ولما تدق الناسة قائلاً : « تفضل » فأنزل دون أن أنتبه لما حدث . وفطنت ذات ليلة إلى إرادته . وكانت بى رغبة فى السهر . فما تمالكت أن ثرت لحريتى المسلوبة وصحت : (أنت غرضك تنومنى المغرب ! قسماً بالله العظيم ما أنا نازل)

هكذا كان شأنى فى المسكن الخاص بين أولئك الخدم . وقد لبثت على هذه الحال زمناً اختمرت فيه داخل نفسى جراثيم الثورة الكبرى على هذا النظام فبيت النية ذات ليلة على خلع نير هؤلاء الذين يسمون أنفسهم خدماً لى . فلما كان الصباح أعددت حقائبى ، واستدعيت البواب وطلبت إليه أن يبحث عمن يحل محلى فى هذا المسكن بأثاثه ورياشه . فأتى إلى برجل انجليزى وزوجته فتركت فى عهدتهما كل شىء حتى كتبى ، وغادرت ما فى البيت من أشياء خصوصية ومن مؤونة حتى زجاجات المياه المعدنية وعلب الجبن والمربة والزبد والبن والشاى والفطائر ، وطردت خدمى ، واستغنيت عن سيارتى ، وانطلقت بمفردى حراً من جديد ، أتنقل فى الفنادق وأطوف بالشوارع ، وأقفز إلى عربات الترام وسيارات الأوتوبيس ، وأختلط بالناس ، وأمتزج بالجماهير . فأحسست كأن الدم يعود حاراً إلى عروق . وأن قدمى قد فرحتا بلمس الأرض من جديد، وأن فكرى قد عاد إلى انطلاقه ونشاطه ، مع السير الحر بالأقدام فى كل مكان ، وملاحظتى الناس فى الطرقات قد أخصبت ذهنى الذى حبس طويلاً خلف الزجاج ، وجعلت أقف على بائع الذرة وهو يشوى كيزانه على عربته الصغيرة فأحادثه وأباسطه لا يتعجلنى سائق ولا تنتظرنى سيارة، وأصغى إلى حديثه الطويل فى ذلك الليل مع كناس الجهة. فأشترك معهما فى الحديث والسمر ، ورأيت الكناس يساوم البائع طمعاً فى كوز ، والبائع لاه عنه لا تخطر له العزومة على بال « فإن الشغل شغل » فى عرف التجار ، فشريت أنا كوزين أعطيت الكناس واحداً واستبقيت لنفسى الآخر . فدعا لى الكناس الدعوات الصادقات ، وجعل يأكل ويقص على مما عنده من أحاديث العامة البريئة اللذيذة ...

عرض هذا الشريط كله فى رأسى عند ما سألنى المخرج ذلك السؤال . ولم أجبه بشىء غير تلك الابتسامة التى أثارتها هذه الذكريات ...

توفيق الحكيم

الإفصاح

المعجم العربى الفذ ، وهو خلاصة وافية المخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية فى العلوم المختلفة ، ولا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريبا ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى
المدرس بمدرسة الخديوى إسماعيل الثانوية

عبد الفتاح الصعيدى
رئيس التحرير بمجمع اللغة الملكى

معهد التناسليات

قد افتتح معهد التناسليات ببرلين تأسيس الدكتور ماجنوس هيرشفلد فرعاً له بمدينة القاهرة بعمارة روفيه رقم ٤٦ بشارع المدابغ لمدينة سكان مصر والشرق تليفون ٥٢٥٧٨ لمعالجة جميع الاضطرابات والأمراض والشواذ التناسلية والعقم عند الرجال والنساء وتجديد الشباب بحسب الطرق المتبعة فى المعهد الرئيسى بمدينة برلين . ومواعيد العيادة يومياً من الساعة ٩ – ١ صباحاً ومن ٤ – ٥ مساءً .

ملاحظة – لا يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة إلا بعد الإجابة على مجموعة الأسئلة السيكولوجية المحتوية على ١٤١ سؤالاً التى يمكن الحصول عليها نظير ٥ قروش صاغ .

(سجل تجارى ٢٢٧٠)